ويظل الموضوع - كما رأينا - بعيدا عن تلك الطبيعة الانعزالية عن مبدعه ، وكذا عن العمل ذاته ، إذ يتفاعل معهما تفاعلا إيجابيا خلاّقاً ، يحيل على إثره الموقف الأدبى إلى صيغة جدلية ، تنهض على أساس من حتمية التأثير والتأثر ، ذلك أن الموضوع فى ثباته قبل اختيار الشاعر له يبدو جامدا غير متحرك ، أو - على الأقل - لاتظهر فعالياته ، فإذا ما اختاره المبدع بدأت مرحلة الحركة ، واحتفت ظاهرة الكمون ، لأن فنانا ما سيتعامل معه ، فيؤثر فيه حين يختاره من بين بقية الموضوعات ، وهو اختيار لابد أن ينم عن تأثر للفنان أيضا ، وإذن نحن بين تأثر وتأثير ، - أو بمعنى أدق - بين جدل وتبادل بين الطرفين ، ابتداء من قدرة الموضوع على إثارة انفعال ما لدى الفنان حين استوقفه عنده دون سواه ، وإذا بالفنان يطرح من خلاله كل ما تعزّزه ملكاته وقدراته الإبداعية فيؤثر فيه ، خاصة حين يحيله من حدث فردى جزئى إلى موقف إنسانى أكثر شمولية ، وأشد رحابة واتساعا وعمقا وتأثيرا ، وكأنه يتحاور من منظور الأنا بدايةً ، ليتسع بها إلى منظور «النحن» ، أو - بمعنى أعم - يحيل الظاهرة الفردية إلى رؤية عامة يبدو هو نفسه مسئولاً عن جانب منها من واقع تجاربه ومنطلق انفعالاته وطبيعة رؤيته .

ولعل نظرية التوصيل التى توقّف عندها طويلا ريتشاردز فى (مبادئ النقد الأدبى) تظل بمثابة الحارس الأمين لصدق هذا التفاعل وضمان قيامه بين الشاعر وموضوعه ، إذ لا شك أن واحداً من معايير النجاح والأصالة يظل متعلقا بقدرة المبدع على توصيل التجربة لجمهوره ، وكأنه يعيشها معه من خلال هذا التفاعل الذى أجاد تمثُّله بينه وبين موضوعه حين اختاره ، ثم بينه وبينه مرة أخرى حين أبدع حوله تلك الصياغة الجمالية التى جسدها عمله الفنى .

ويبقى الانطلاق من الموضوع بهذا الشكل قادرا على أن يتجاوز - بالتأكيد - موقف النظريات الأولى ، على نحو ما رصدته المحاكاة - مثلا - فى علاقة الفنان بموضوعه من منظور حرفى تكاد تفقد فيه الذات كيانها وقدرتها على التأثير ، أو حتى منطقها فى الإضافة والابتكار .

وما يقال عن الموضوع كمقوِّم أساس من مقومات العمل ، ينسحب على الفنان أيضا إذ لاعمل بلا مبدع ، ولا إبداع دون اختيار وتفاعل وجدل ، ومن ثَمَّ يجب النظر إلى المبدع أيضا فى سياق هذا التفاعل ومن منظور ذلك الجدل المتواصل مع موضوعه : كيف تأثر به ، ولماذا